لاتخلو من استعمال بعض العبارات العامة ، فقد كان يكتب عن الشعر الردىء كتابة مهتاج ، وكان يسمى الشعر الردىء باسم البهرج والكذب والطنين والبريق ، والقارىء محتاج الى المهل الشديد حين يعبر هذه الألفاظ . كانت آفة البلاغة فيما يظهر أنها لاتميز تمييزا دقيقا بين الجمال والكذب ، وكان البيت الذى اعترض عليه العقاد من قبل من هذا النمط ، والكذب عند العقاد يختلط كما نرى بالبهرج . وبعبارة أخرى ميز العقاد بين الزينة والجمال ، هذا التمييز الذى كان غائبا فى تراث البلاغة ، كانت وظيفة العقاد صعبة ، ومانزال محتاجين الى مذاكرة هذه الملاحظات المبثوثة فى كتاباته مهما نتحرج أحيانا من مسايرة العقاد ، ومهما نظن أنه قد عبر عنها تعبيرا لايخلو من حدة ، والحقيقة أن فكرة الحرية ماتزال تؤثر فى نظرة العقاد . فالشعر الردىء عنده يقف عند الحس ، ويجمد عنده الخيال ، أو هو عقبة تستوقف الناظرين ، وقيد يغل الحس والتفكير ، أما الشعر الجيد فنقيض ذلك ، مايبدو منه لأول وهلة هو أقل مما فيه ، أو هو رائده الذى يسعى أمامه ليدل على وصوله ، وهو لايستوقف الحس ولايعطل التفكير والخيال ، ولكنه يطلق النفس فى هوادة ورفق ، ويسلس فى الطبع شعور السماحة والاسترسال ، هناك شعر ردىء كثير روجت له البلاغة أو روجت له آداب غير قليلة . كان العقاد ينتقد شواهد البلاغة انتقادا عميقا حين يتهم الشعر الردىء اتهاما يلفت النظر ، وبعبارة أخرى إن طريقة الشعر الردىء هى طريقة لذع الحس وتهييج الشعور . ومن الواضح أن هذا الوصف ينطبق على إحدى روايتى بيت البارودى . ولنذكرها مرة أخرى :

اقاموا زمانا ثم بدد شملهم .. اخو فتكات بالكرام اسمه الدهر

الشعر الردىء يزيد فى المادية زيادة ، ويتمادى فى إعنات الحواس ، أو يشوبه حس منزعج أو جسد منهوك ، ومسألة الإزعاج شغلت العقاد وشغلت المازنى ، وقد رأى الرائدان العظيمان أن كثيرا من الناس فى زمانهما وقبل زمانهما يبتهجون مع الأسف بالشعر الذى يثقل على حاسة من الحواس ، أو الشعر الذى يضعف أعصاب الوظائف الحسية ، هذه هى الزينة المفضلة فى البلاغة ، زينة الإرهاق والإزعاج ، الشعر الردىء هو الولع بالعقبة دون الطلاقة ، والعقبة مأتاها من سرف العناية بالوظائف الحسية ، الشعر الردىء لايعبأ بنشاط النفس ومراحها أو حريتها ، ويجدر بنا أن نستوقف أنفسنا عند أبيات أخرى ، فقد امتدح البلغاء جيلا بعد آخر قول الشاعر :